لمن المستقبل
للشرق أم للغرب؟

رأى خطير للزعيم التونسي الكبير

السيد عبد العزيز الثعالبي

(السيد عبد العزيز الثعالبي)

لعل القراء يذكرون الحديث القيم الذى تحدث الينا به زعيم تونس الاكبر، والرحالة الشرقى الكبير السيد عبد العزيز الثعالبي، عن «داء الشرق الاسلامى ودوائه» الذى نشر فى الجزء الثالث من «المعرفة» وكذلك حديثه القيم عن «المؤتمر الاسلامى» فى الجزء الخامس الصادر فى سبتمبر سنة ١٩٣١، ولعلهم يذكرون ما أثارته بعض الصحف والمجلات حول هذين المقالين من حملة هى فى الحق موجهة إلى المجلة، لكننا لا نلقى إلى هؤلاء بالا، ولا نقيم لهم وزناً ولا اعتباراً فيحسبهم أن يكونوا دخلاء مأجورين، ليعلم الناس مبلغ مافى دعاياتهم من كذب وتضليل، على أن الذى يستوقف نظرنا حقاً، والذى نصرح به مغتبطين فخورين، هو أن هذين الحديثين كانا أساساً لعمل كبير يتمخض عنه العالم الاسلامى اليوم، ذلك العمل هو المؤتمر الاسلامى الذى سينعقد فى أول ديسمبر سنة ١٩٣١ فى القدس الشريف.

وإذن فقد حقق الله أول غرض من أغراض المجلة، التى ذكرناها فى الصفحة ٤ من العدد الأول، فكانت فكرة ربط البلاد الاسلامية الشرقية بعضها ببعض، وكان أن حقق الله رجاءنا أيضا، فكانت «المعرفة» مركزاً لنشر الفكرة الاسلامية وبعثها، وكان أن حقق الله على صفحاتها الاقتراح الذى أذاعه فيها سعادة احمد شفيق باشا وكيل جمعية الرابطة الشرقية فى

الجزء الاول الصادر فى مايو سنة ١٩٣١ ، وقد كان ذلك الاقتراح خاصاً بعمل « مؤتمر للعائلة الاسلامية ، وفيه يبحث عن العادات الحسنة والضارة ثم يقرر الصالح منها ، ويعدل ما يلزم تعديله ، بحيث لا يختلف مع الشرق والتقاليد الاسلامية » (١)

كل ما تقدم كفيل على ما نعتقد بأن يعطى قراءنا أصدق صورة موجزة لما نسعى إلى تحقيقه وما نرجوه من عملنا خالصين إلى الله مخلصين .

وسيرى القراء من هذا الحديث الذى حصلنا عليه من الاستاذ الثعالبى بعض ما تنبض به قلوبنا وتسأل عنه نفوسنا دائما .

لمن المستقبل ؟ للشرق أم للغرب ؟ هذا هو السؤال الذى تفضل الاستاذ الثعالبى فأجابنا عليه بما يأتى :

المستقبل للشرق

لقد بدأت دولة الغرب فى الزوال والاضمحلال ، والسر فى ذلك راجع إلى الاستعمار نفسه ، لأن الاستعمار ينطوى على عناصر الانحطاط كلها ، ففيه حب الاستئثار والنهب والاغتصاب والظلم ، والارتكاب والكذب ، والخداع والنفاق ، والدجل وقلب الحقائق ، وبالاستمرار صارت هذه الخلال الفاسدة جبلة فى المستعمرين وبانصالهم بأممهم ودولهم انتقلت هذه الأدواء من الهيئات الاستعمارية إلى عناصرها فى الغرب ، فصارت داء وبيلا فيهم ، وكفى لسريانها أن قادة الاستعمار صاروا عندما يتسنمون المراكز العالية فى مما لكهم ، ويسيرون دفة السياسة فيها بالأساليب التى وضعت للمستعمرات نفسها ، فالديكتاتورية والأحزاب المستبدة المتغلبة على الحكومات الأوربية ظاهرة جلية لانتقال هذه الأجواء من الشرق المغلوب على أمره إلى الغرب الغالب ، فهو اليوم بؤرة أدواء اجتماعية كثيرة تنتشر فيه انتشاراً هائلا سريعاً لاسبيل لمقاومته ، فالمجالس النيابية التى كانت فى القرن الثامن عشر عصاماً لما لكه من طغيان السلطة التنفيذية ، أصبحت بعد الحرب الكبرى مغلوبة لها تجاه المشاكل الكثيرة التى تحدث يومياً من جراء تأثير الحرب .

فالحرب الكبرى لم تكن نتيجتها تغلب فريق من الأوروبيين على فريق آخر ، بل كانت قضاء مبرماً على المدنية الأوروبية نفسها . رغم ما نشاهده من قوة التماسك بين أجزائها ، وما التماسك فى الحقيقة إلا أثرا من آثار الماضى ، وبناء الماضى مهما تداعى لا يمكن أن ينهار دفعة واحدة ، بل لابد لذلك الانهيار من زمن ، حتى يصبح البناء فيه أنقاضاً ، وذلك كلما ألمت أسباب التخريب فى أى بناء مهما كان مشمخراً .

كانت أوروبا قبل الحرب الكونية متحدة متضامنة متراصة البناء ، تسعى خلف غاية واحدة هى استعباد الشرق ، وإذلال عناصره وأقوامه ، وبعد هذا الانفكاك صارت تعمل لأذلالها بعضها البعض . فان الوحدة الاوروبية كانت تتمثل لنا فى معاهدتى باريس وبرلين . وفيهما بلغت

(١) راجع ص ٢٢ من هذه المجلة

ذولها ما بلغت اليه من التفوق والنفوذ والقوة . أما الآن فان معاهدة فرساى قد غيرت خريطة العالم ومزقته أشلاء، وكفلت السيادة لأوروبا الغربية على أوروبا الوسطى والشرقية، على أن الأمم الغالبة ليست متفوقة ولا بأرقى من الأمم المغلوبة ، بل نجد بعض الأمم المغلوبة أرقى مدنية وحضارة بكثير من بعض الامم الغالبة . وهى مجدة فى الثأر لنفسها والانتقام من غالبيها ولا بد لها من الانتقام لنفسها . وربما كان ذلك قريباً أقرب مما نحتسب .

لا أنكر أن الأمم الغالبة تحاول أن تبعد عنها شبح هذه الكارثة بشتى الوسائل ، منها عقد الاتفاقات والمحالفات ضد الأمم المغلوبة ، وكإيجاد معاهدة التحكيم وإنقاص التسليح وغير ذلك ، لكنها ليست بالوسائل الناجعة لرأب الصدع المتفاقم فى أوروبا ، ولا شك فى أن كارثة المستقبل ستكون أشد هولا من التى سبقتها ، ولن تجدى عنها معاهداتها ولا عتادها ولا تدابيرها ، لأن الداء لم يكن عالقاً بالظواهر الاجتماعية بل كامناً فى نفسيات الأقوام كما بينا ، فالتدابير الظاهرة لن تغنى فتيلا عن اتقاء الأخطار المتوقعة ، اللهم إلا إذا عمد فلاسفة أوروبا وعلماؤها ومشترعوها إلى قلب أوضاع السياسة العالمية ، وسلكوا المنهاج الحكيم الذى وضعه ولسون فى شروطه الاربعة عشر التى وضعها لتأمين العالم ، وهى إمتاع الأمم الصغرى بالحقوق التى تتمتع بها الأمم الكبرى ، حيث يرتفع استبداد الأمم عن بعضها ويسود الأمن ويعم الرخاء والرفاهية وتستقيم الآداب وتسمو المبادىء الفاضلة وتنقطع أسباب الحروب .

وليس الشقاء الداخلى الفاغر فاه الذى وصفناه هو كل مايتهدد أوروبا ، فهناك خطر آخر ليس بأقل شأناً من الأول ، وهو خطر الشرق العتيد ، فقد شعر الشرق بعد انتهاء الحرب العالمية بحقوقه وأدرك مبلغ الضعف الذى انتاب أوروبا ، وأنها ليست بالعظمة التى كان يتخيلها ، وأن المادة التى كانت مدار تفوقها عليه هي فى مقدرته لو حاول الحصول عليها لأنها متاع ، والمتاع يملك ويحرز . وقد نهض الشرق الآن فى أكثر ممالكه نهضة قوية صادقة لمنازعة أوروبا واسترجاع سلطانه المغصوب منها ، وهى وإن كانت نهضة هادئة بطيئة لكنها آخذة فى الاستمرار والتقدم ، وهى تشتد وتقوى يوما فيوما . وسيكون كفاحه عنيفا حين يبدو أقل ارتباك تقع فيه أوروبا ، فى الشرق من صلابة الأيمان وقوة العقيدة ما يعز وجوده فى القارة المخدوعة بمظاهرها المادية التى تبين أنها لا شىء أمام عظمة الروح السائدة فى الشرق والتى عنيت الدعاية السياسية ومدرسة الاستعمار بأزهاقها منذ قرن ونصف قرن فعادت بالخيبة والفشل . ومهما تكهن المتكهنون وتقول الحراصون عن ضعف الشرق ، فأن المستقبل له وسيبدو لنا من كفاحه السلمى مايدهش الألباب ويبهر الأذهان، والمستقبل كشاف للحقائق، والزمن كفيل بتحقيق هذا الجواب

عبد العزيز الثعالبى